

مكانة الشهداء في التاريخ

أ. فيلالي السايح

جامعة قسنطينة

المقدمة

لقد كرم الإسلام منزلة الشهداء بين المجاهدين و العاملين ، و المستجيبين لنداء رب العالمين ، ففتح أمامهم أبواب الجنة على سعتها ، و عدهم على استشهادهم بما لا عين رأت و لا أذن سمعت ، و لا خطر على قلب بشر ، و زكى عملهم في سره و علانيته و في معناه و مبناه ، حتى جعل لشهيد يكفن بثيابه و دمائه التي سالت نته حين استشهاده لتكون هذه القطرات من الدم خير و سام يحلي صدره يوم يلقي ربه ، فبعث من قبره و دمه على جسمه لونه لون الدم ، و لكن ريحه ريح المسك و لقد زكت مكانة ط الشهيد " حتى في لفظه و كلته ، فلا نرى استعمال كلمة الشهيد غالبا إلا في مواطن الحمد و السمون فنلاحظ أن الله تعالى سمي نفسه في القرآن شهيدا بقوله : " إن الله كان على كل شيء شهيدا " (سورة النساء) و قوله تعالى : " وجاءت كل نفس معها سائق و شهيد " (سورة ق) ، و سمي الله المعتبر المتذكر شهيدا في قوله تعالى : " إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى لسمع وهو شهيد " (سورة ق).

كما وصف المؤمنين العادلين بأنهم شهداء في قوله : " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله " (سورة النساء) ، ثم يقول الله تعالى عن لشهداء : " والشهداء عند ربهم لهم أجرهم و نورهم " (سورة الحديد) ، ثم يجمع ركبهم مع ركب الأنبياء فيقول : " و جيء

بالنبيين و الشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون " (سورة الزمر)⁽¹⁾

1- الحرب والشهداء

لا بد أن تسفر الحرب أية حرب كانت عن قتلى من الفريقين المتحاربين ، وقد خصص الإسلام لفظ "الشهيد" للمجاهد الذي يتوفى في ساحة الشرف دفاعا عن العقيدة والوطن ، حرية الأوطان و الشعوب والأمم ، ولم يعرف تاريخ الأديان مقاما أعلى وأسمى من المقام الذي يتبوؤه الشهيد في الآخرة ⁽²⁾ ولاسيما في الدين الإسلامي ، وهذا متفق مع طبائع الأشياء ، لأن الجود بالذات هو أقصى غاية الجود كما قال الشاعر العربي مروان بن أبي حفصة :

ويجود بالذات إذ ضن الجواد بها

و الجود بالذات أقصى غاية الجود

قال الشيخ حسن خالد في كتابه " الشهيد في الإسلام " : "الجهاد طريق مزروع بالأشواك كثير العقبات ، متنوع الصعوبات محفوف بالمكاره و الشدائد ، ولكنه سبيل ثلة من البشر ، هم في مصاف السابقين ومع النبيين والصالحين ، وهم عليا الناس ، و صفوة الخلق بعد الرسل والأنبياء و الصديقين ، إنه طريق الشهداء"⁽³⁾

مصطلح الشهيد

سنحاول أن ندرس هذا اللفظ " الشهيد " كمصطلح ورد لفظه في القرآن الكريم مفردة ومثناه ومجموعة ، خمسا وخمسين مرة ، في مختلف سور القرآن الكريم. وكانت في كل مرة منها ذات معنى منتزع من المعنى اللغوي للشهادة إلا في ثلاثة مواضع هي:

- 1 - قوله تعالى : " ومن يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيئين و الصديقين و الشهداء و الصالحين وحسن أولئك رفيقا " (سورة النساء الآية 68).
- 2 - وقوله تعالى في سورة الزمر : " وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب وجيء بالنبيئين و الشهداء " .
- 3 - قوله تعالى في سورة الحديد : " و الذين آمنوا بالله ورسوله ، أولئك هم الصديقين و الشهداء عند ربهم لهم أجرهم نورهم " فإنها على جمع شهيد ، بمعنى الذي يقتل في سبيل الله.

أما مصطلح "شاهد" وشهيد " في اللغة ، فقد جاء استعمال القرآن الكريم للفظة " شاهد" مفردة ومثناة ، ومجموعة ، وكذلك لفظة " شهيد " وهي في صيغتها مشتقة من الشهادة و معناها الخبر أو الحضور ، ويقال :شهد الشيء ، فهو شاهد ، أي حضره كقوله

تعالى : "فمن شهد منكم الشهر فليصمه " (سورة البقرة) ، وقوله :
وما شهدنا مهلك أهله " (سورة النحل).

ويقال شهد به : إذا أخبر به عن مشاهدة بالبصر، وهو الأكثر و
الأصل .وعن مشاهدة بالبصيرة هي الاعتقاد و العلم كقوله تعالى
حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام: " وما شهدنا إلا بما علمنا
"، وذلك أنهم أخبروا أباهم يعقوب عليه السلام بأن ابنه شقيق
يوسف سرق⁽⁴⁾.

أما ابن منظور في لسان العرب فيورد أن الشهيد : الذي لا يغيب عن
علمه شيء " فهو من أسماء الله الحسنی " ، و الشهيد الحاضر ،
فعل من أنيه المبالغة من فاعل ، فإذا اعتبر العم مطلقا فهو
عليم، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو شهيد ...إلى أن قال
استشهد فلان فهو شهيد ، و المشاهدة المعاينة ، وشهد شهودا أي
حضره فهو شاهد وقوم شهود أي حضور⁽⁵⁾

وعن النضر بن شميل :الشهيد هو الحي ،وقال أبو منصور : أراه
تأول قول الله عز وجل : " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا
بل أحياء عند ربهم يرزقون" ، ثم يقول : " و الشهيد المقتول في سبيل
الله و الجمع شهداء "

الشهيد في الاصلاح

نقل الإسلام معنى "شهيد" من مدلولها اللفظي الذي وهو الحضور، أو العلم، المشاهدة إلى معنى اصطلاحي: هو من قتل في سبيل الله محتسبا مقبلا غير مدبر.

وقد ذكر ابن حجر في كتابه "فتح الباري" أسبابا في تعليل هذه التسمية منها:

- لأن الشهيد حي فكأنما روحه شاهدة أي حاضرة.
- لان الله يشهد عند خروج روحه ما أعد له من الكرامة بالقتل.
- لان الله وملائكته يشهدون له بالجنة.
- لأنه يشهد له بالأمان من النار .
- لأن الملائكة تشهد له بحسن الإتياع.
- لأن الله يشهد له بحسن نيته.
- لأنه شاهد الملائكة حين احتضاره.

الشهيد في السنة

أما الشهيد في السنة فقد ورد في كتب السيرة أن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) وقف في الناس يوم بدر وحرصهم قائلاً: "و الذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة " فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن بخ، بخ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل على يد خالد بن الأعمى "وذكر ابن اسحاق أن حارثة بن سراقة كان أول من استشهد في بدر من المسلمين .

وإن كان البعض يرى بان ابتداء إطلاق لفظة الشهيد بمعناها الديني كان في معركة بدر ، إلا أن البعض الآخر يرى بان ثمة شهداء قد سبقوا هذه المعركة فماتوا صبراً واحتساباً نتيجة العذاب الأليم الذي كان يصبه عليهم كفار قومهم في مكة وغيرها .

المسيرة التاريخية للاستشهاد

استمرت المسيرة التاريخية للاستشهاد عبر مراحل التاريخ العربي الإسلامي، للوقوف في وجه الحملات التبشيرية الاستيطانية "الحملات الصليبية: على المشرق الإسلامي، ثم المغرب الإسلامي في مرحلة لاحقة، وتوالت قوافل الشهداء في الصراع بين الشرق والغرب

، ولعوامل تاريخية بدأت تتوغل جحافل الاستعمار في الإطار العربية الإسلامية ، وكان من بينها الجزائر التي سقطت في يد الاستعمار الفرنسي سنة 1830 ، ومنذ هذا التاريخ لم يستسلم الجزائريون لهذا الدخيل البغيض ، وإنما قاوموه بكل ما أوتوا من قوة ، شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا.

ونتيجة لعوامل و ظروف تاريخية أيضا ، لم تتمكن هذه المقاومات و الثورات المختلفة في القرنين 18 ، 19 من دحر الاستعمار الفرنسي رغم الفاتورة الكبيرة من المجاهدين و الشهداء الذين سقطوا دفاعا عن أرض الجزائر و حرمتها⁽⁶⁾. إلى أن جاءت ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 ، التي أبلى فيها الجزائريون البلاء الحسن ، فكانت النتيجة العدد الكبير من الشهداء.

نظرة الشعوب و الأمم إلى موتها في الحروب و المقاومات

الحقيقة أن كل الأمم و الشعوب منذ قد التاريخ نظرت لمقاوميتها ولأبطالها الذين ماتوا في الحروب نظرة تمجيد و تعظيم ، ففي الحروب القديمة نجد أسماء لأشخاص اعتبروا بمثابة رموز لأوطانهم و لحضارتهم و في العصور الوسطى اشتهرت الحروب الصليبية التي قادها الغرب المسيحي ، ضد الشرق الإسلامي و اعتبر الذين ماتوا فيها بمثابة شهداء الكنيسة ، كما اعتبر من مات من المسيحيين

في الحملات الصليبية المتأخرة على المغرب الإسلامي شهداء في سبيل نشر المسيحية وطرد العرب المسلمين من الأندلس ، ومتابعتهم حتى شمال إفريقيا، وحرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا كانت نتيجة لذلك.

ولذلك يمكن القول أن كل الشعوب و الأمم نظرت إلى موتها في الحروب نظرة تقدير واحترام.

مكانة الشهيد في الضمير الجمعي للمجتمع الجزائري

لا شك أن كل متتبع للخطاب السياسي الرسمي للجزائر منذ الاستقلال إلى الآن إلا ويجد أن ثورة أول نوفمبر دائما المرجع للجميع، وكذا الشهداء و المجاهدون كل من قدم مجهودا من أجل أن تحبا الجزائر حرة مستقلة.

ولكن في الواقع العملي يمكن أن نقول أن هذه الثورة وما قدمته للجزائر من تضحيات جسام غيبت على مستوى الممارسة ، بالنسبة للأجيال ، فتاريخ الجزائر في عهد ثورة التحرير وما بعدها كانت إلى عهد قريب لا تدرس للشباب في مختلف مراحل التعليم ، فلا البطولات ولا التضحيات التي قدمها هؤلاء الشهداء و المجاهدون اطلع عليها الجيل الصاعد حتى يتخذها كنموذج و يتمثلها في سلوكاته وحياته ووطنيته ، لأن التاريخ يعتبر من المواد الأساسية

للأمة في بناء شخصية الفرد وربطه بقيم مجتمعه ووطنه، وبعضمائها، وهذا ما هو معمول به في جميع بلدان العالم التي تحترم نفسها فنجدها تركز على هذا الجانب لغرس الروح الوطنية في أبنائها من خلال تمجيد عظمائها وتذكيرهم بهم باستمرار .

أما عندنا في الجزائر فيمكن أن نقول باختصار أننا من الشعوب التي تصنع التاريخ و لكن لا تهتم به، بل تهمله، ما هو السبب في ذلك ؟؟ إن إهمال لتاريخ لعله من بين الأسباب التي أدت بالأجيال إلى الشك في كل شيء حتى في الثورة، وفي الشهداء أنفسهم ، وأنا لا احمل الشباب الجزائري وزر ذلك فهم أبنائنا، ولعلمهم بدون شك من الحس الوطني و حب الجزائر الشيء الكثير ولكن عدم تغذية هذا الحس وإيقاظ الروح الوطنية لديهم بإبراز روح التضحية و الفداء التي اتصف بها أجدادهم وآباؤهم هو الذي أدى إلى هذا فتور هذا الجانب لدى البعض منهم .

ولعل اللوم يقع على من تحمل مسؤولية التوجيه و التربية والإشراف وغير ذلك ، نأمل أن يهتم المعنيون أكثر بهذا الجانب حتى نستطيع استدراك ما يمكن استدراكه في هذا المجال ن والله الموفق.

جامعة قسنطينة - 19 جوان 1995.

الهوامش

- ❖ -موضوع قدم كمدخلة في الملتقى الوطني الأول حول شهداء ثورة أول نوفمبر الخالدة المنعقدة بباتنة من 26 إلى 28 جوان 1995
- 1 - أحمد الشرياصي، موسوعة الفداء في الإسلام ، بيروت، الطبعة الأولى 1976، ص 450_451.
- 2 -لذا نجد أن كل الشعوب و الأمم تنظر نظرة تقدير إلى درجة التقديس إلى موتها في الحروب التي خاضوها من أجل الإستقلال و الحرية، أو الدفاع عن أوطانهم من أي غزو خارجي.
- 3 -ظافر القاسمي، الجهاد و الحقوق الدولية العامة في الإسلام، دار العلم للملايين ، بيروت ، بدون تاريخ، ص512.
- 4 - نفس المرجع، ص515
- 5 - نفس المرجع ، ص 516
- 6 - عادة ما تذكر إحصائية الشهداء في الجزائر بمليون و نصف المليونمن الشهداء حتى أصبحت تسمى بثورة المليون و النصف، و لكن إذا تمكنا من إحصاء كل الذين استشهدوا وقتلوا من طرف الاستعمار الفرنسي بدءا من معركة سطاولي سنة 1830 إلى جويلية 1962 ، فإنه دون شك سنحصل على إحصائية مذهلة لعلها تتجاوز عدة ملايين.